

مثنى وحبية الحصى

— عاتكة أبو السعود^(١) - سورية —

أَنْزِنَ قُلُوبَ أَنْتَ فِي السَّحَرِ...؟ أَحْسُ وَجِيبَ قُلُوبٍ تُخْرَجُ
الْأَهَامَ مِنَ الْحَنَاجِرِ تَشْكُوهُمْ إِلَى مَدْبَرِ الْقَدَرِ...؟
تَمَائِلُ الْقَمَرِ تَبْهًا وَصَاحَ وَزَمَجَرٍ: وَيَحْكُ! أَمَا تَعْلَمِينَ أَنَّ
الْإِلَّةَ لَيْلَةَ عِيدِ الْأَضْحَى الْأَكْبَرِ...؟

لَيْلَةَ عَادَ هَوْلَاءُ مِنْ عَرَفَاتِ الْخَيْرِ الْأَعْطَرِ... نَادَوْا
بَصُوتٍ وَاحِدٍ إِلَهًا وَاحِدًا، هَلَّلَ الْجَمْعُ... وَلَبَّى وَكَبَّرُ... جَاءَ
الْجَوَابُ سَرِيعًا مِنَ الرُّؤُوفِ الرَّحِيمِ... أَفِيضُوا مَغْفُورًا لَكُمْ
مَهْمَا تَعَدَّدَ الْجَمْعُ وَكَثُرَ.

زَغَرَدَتِ النُّجْمَةُ بِصُوتٍ رَخِيمٍ وَقَالَتْ بَدَلًا: حَمْدًا لِلَّهِ يَا
قَمَرُ... إِنَّنِي لَمْ أَكُنْ مِنْ هَوْلَاءِ الْبَشَرِ، لَمْ أَكُنْ فِي الْأَرْضِ ذَاتِ
الْتِرَابِ وَالْمَدَرِ... سَفَلِيَّةٌ تُوطَأُ بِالْأَرْجُلِ مِنْ قَبْلِ الْبَشَرِ... أَنَا
عُلُوبِيَّةٌ أَنْظُرُ إِلَيْهِمْ... وَيَا نِعَمَ النَّظَرِ...!

وَبَيْنَمَا هُمَا عَلَى هَذِهِ الْحَالِ... وَالْكَلَامِ بَيْنَهُمَا سَجَالٌ...
صَعَدَ إِلَيْهِمْ صَوْتُ أَرْضِيٍّ فِي الْحَالِ هَزُّ الْمَشَاعِرِ وَأَطْرَبُ
الْبَالِ... أَصْفَتِ النُّجْمَةُ بِهَدْوٍ... وَمَالَ الْقَمَرُ إِلَى جَنْبِ
السَّمَاءِ... يَحَاوِلُ الْوَدَاعَ...

نَادَتْهُ النُّجْمَةُ بِضَرَاةٍ: أَيُّهَا الْغَالِي أَنْتَظِرْ سَاعَةً... لَا
تُسْرِعْ فِي مَفَارِقَةِ الْجَمَاعَةِ... فَإِنَّ الْخَيْرَ كُلَّهُ فِيهِمْ، وَمَعَهُمْ
تَحُلُو الطَّاعَةَ...
اسْمَعْ مَعِيَ أَيُّهَا الْغَالِي... إِلَى ذَلِكَ الصَّوْتِ السَّفَلِيِّ
الْعَالِيِّ...

تَعَالِ مَعًا لِنَسْجُلَ لِلتَّارِيخِ مَاذَا يَقُولُ... عَلَّنَا نَسْتَفِيدُ مِنْهُ
قَبْلَ الْأَفُولِ:

رَبَّاهُ... اسْتَخْلَفْتَنَا فَحَبْلُنَا، وَعَلَى بَابِكَ أَقْبَلْنَا... رَبَّاهُ...
دَعَوْتَنَا فَلَبَّيْنَا وَلِرَحَابِكَ أَتَيْنَا...
رَبَّاهُ... مَنَنْتَ فَأَفْضَلْتَ... وَحَبَوْتَ فَأَنْعَمْتَ... عَرَفْتَاكَ

نَظَرْتُ لِلْبَطْحَاءِ... ثُمَّ إِلَى السَّمَاءِ... فَقُلْتُ فِي صَفَاءٍ:
أَيُّهَا السَّمَاءُ... كَمْ تَمَتَّعْتَ مِنَ النُّجُومِ بِأَلَاءٍ... وَكَمْ تَهَتَّ
بِهَا فَخْرًا وَزَهْوًا وَكِبْرِيَاءَ... كَمْ قُلْتَ لَنَا مِنَ الْعِلْيَاءِ: أَحْجَارِي
مَاسِيَّةٌ... تَشَعُّ بِالضِّيَاءِ... وَأَحْجَارُكُمْ صَخْرِيَّةٌ صَمَاءٌ...!

مَهْلًا أَيُّهَا السَّمَاءُ... خَالِقُ النُّجْمِ هُوَ خَالِقُ الْحَجَارَةِ
الْمَلْسَاءِ... تَدْبِرِي تَفَكَّرِي... أَلَيْسَ قَمَرُكَ مِنَ الْحَجَارَةِ
الصَّمَاءِ...؟ أَلَيْسَ نَجْمُكَ الْمَاسِيَّ يَسْتَمِدُّ عَطَاءَهُ مِنْ خَالِقِ
الضِّيَاءِ...؟ أَلَمْ يَخْلُقِ اللَّهُ الْقَمَرَ مِنْ حَجَارَةِ دُونَ مَاءٍ...؟

وَلَمَّا تَوَاضَعَ... أَمَدَّهُ اللَّهُ مِنَ الشَّمْسِ بِالْبَهَاءِ... صَارَ
مَقْرُونًا بِهَا فِي الْأَرْضِ وَفِي السَّمَاءِ... صَارَ لِأَلَاءٍ... نَظْنُ أَنْ
الْخَيْرَ مِنْهُ... يَدَّ أَنْ الْخَيْرَ كُلَّهُ بِيَدِ مَالِكِ الْعَطَاءِ...
نَظْنُ النُّورِ وَالْإِشْرَاقِ وَالْبَسْمَةِ فِي وَجْهِهِ، وَهَلْ هِيَ إِلَّا
مِمَّنْ أَعْطَاهُ الْبَهَاءَ...

مَهْلًا أَيُّهَا السَّمَاءُ... مَهْلًا أَيُّهَا السَّمَاءُ...

مَدَّ الْبَسَاطَ الْمَخْمَلِيَّ جَوَانِبُهُ عَلَى الْكَوْنِ بَعْنُو وَخَجَلُ...
وَسَوَادُ اللَّيْلِ الدَّامِسَ زِينَهُ الْقَمَرُ فِي لَيْلَةِ عِيدِ الْأَضْحَى
فَرَقَصَ وَحَجَلُ... نَاضِرًا فِي خَفَرٍ... وَذَلَالٍ وَوَجَلُ...
مُنَاجِيًا الْخَالِقَ الْبَارِي... مَا هَذِهِ الْجَمُوعُ؟ مَا هَذِهِ
الْأَصْوَاتُ؟ مَا الْخَطْبُ الْجَلُّ؟

سَجَدَ الْكَوْنُ لِلَّذِي دَبَّرَهُ وَقَالَ: تِلْكَ عَظَمَةُ اللَّهِ الْأَجَلُ...

غَمَزَتْ نَجْمَةٌ فَضِيَّةً بِحَاجِبَيْهَا نَحْوَ الْقَمَرِ الْبَهِيِّ وَقَالَتْ
بَدَلًا وَخَفَرًا: أَنْظِرْ إِلَيَّ... أَعْرَنِي سَمْعَكَ أَيُّهَا الْقَمَرُ...!
أَتَسْمَعُ مِثْلِي وَتَرَى مَا أَرَى وَلَا تَعْجَبُ...؟ أَمْ أَصَابَكَ الْعَشَا
بِالنَّظَرِ...؟ أَتَرَى الْجِبَاهَ الْمَعْفَرَةَ، وَالرُّؤُوسَ الْمَغْفِرَةَ؟ وَتَسْمَعُ

قبل عرفات.. وفي عرفات الله شهدنا نعماءك.. وما نحن في مقام التزلف لجناحك، والتقرب لرحابك..

نبحث عن حصاة الأرض السفلية.. لا ضوء لها.. ولا نور.. ولا ضياء.. فاقبتها نجمة السماء بالعلو والارتقاء.. والسمو والضياء..

يا حبة الحصى.. أنت أغلى عندي من نجمة السماء.. أنت أحب إلي - في المناسك - من قطرة الندى.. أنت أروى لظمًا قلبي - في هاجرة الفلة والعصيان - من ماء بارد زلال.. أبحث عنك.. أحني الظهر.. أعفر اليد.. وأفرح بالعدد.. أحبة ماس أنت..؟! بل أغلى... لأنني بك أطيع الله الأعلى.. أكثر من لجين أم من تبر؟! بل أنت أبهى..! بك دحر الشيطان وأعوانه، وطاعة الله ورضوانه..

تلاؤا الحصى تلاؤا الدُموع المتحدرة على الخدود والتُحور.. لمع الحصى لمعان البسمة على الثُغور.. ومادت الأرض تيهًا بهذا الحصى.. فقال لها الرب: اسكني فأنا الرحيم الغفور..

صاحت الحصى: حمداً لبارئ.. حمداً لخالقي.. حمداً لأنني لم أكن في السماء نجمة.. وأن الأرض مملوءة بي تمور.. هرولت نجمة السماء إلى صديقها القمر.. تناجيه بصوت أجش ووجه أغبر.. منادية.. ألا هلم إلى السفر.. لقد سبقنا الانسان يا قمر، وأوقعتنا الحصىات في الخفر.. ألا يا قمري إلى أين المفر؟! اصفر وجه القمر خجلاً وأمسك بيد أخته مسافراً تاركاً وراءه صدى كلمات بالحنين عامرة... بالحُب غامرة: إليكم يا أهل الأرض من الله المغفرة.. إليكم يا أهل الأرض من الله المغفرة. ■

يا حبة الحصى.. أنت أغلى عندي من نجمة السماء.. أنت أحب إلي - في المناسك - من قطرة الندى.. أنت أروى لظمًا قلبي - في هاجرة الفلة والعصيان - من ماء بارد زلال.. أبحث عنك.. أحني الظهر.. أعفر اليد.. وأفرح بالعدد.. أحبة ماس أنت..؟! بل أغلى... لأنني بك أطيع الله الأعلى.. أكثر من لجين أم من تبر؟! بل أنت أبهى..! بك دحر الشيطان وأعوانه، وطاعة الله ورضوانه..

يا حبة الحصى.. أنت من الأرض التي - منها خلقنا وإليها نعود - يوم الوعيد فيك عجب الذنب للأجسام قبلنا... فكيف لا نحترم هذي الحشود..؟! أنت عالم سفلي، بل علوي.. فيه جبهة الشاه وساق الحسود.. أنت لوحة من جمال.. ما بين حور، وقد، ونحور صبايا غيد.. أنت.. أنت عبرة الزمان من ينر معطلة وقصر مشيد..

يا حبة الحصى.. يا نور العيون.. بك يرتاح المأفون من أحوال الدنى.. بك يسكن وجيب قلب ألقه الضنى.. يرفع اليد مكبراً مهلاً موحداً قد نال المني: (بسم الله والله أكبر إرغاماً للشيطان في منى) إرضاء للرحمن واتباعاً للمصطفى العدنان، وبه يحلو الهنا، سبماً، في سبع.. في سبع، وعلى السبع تدور الدنى (٢).

أحبك يا حبة الحصى.. فلو نظمتك عقداً لتباهيت به على المخلوقات، ولو نظمتك شعراً لفقت أهل الشعر والمعلقات، ولو رسمتك لوحة سباعية أو سبعينية لسبقت

الهوامش:

- (١) داعية ومدرسة ومربية من مدينة حلب، سورية.
- (٢) إشارة لرمي الجمرات في منى سبع حصيات للجمرة الواحدة، والسبعون لجموع الجمرات التي ترمى في الأيام الثلاثة، وإلى قوله تعالى: (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ) (الطلاق: ١٢).
- (٣) إشارة إلى تعرض الشيطان للخليل عندما أراد ذبح إسماعيل عليهما السلام، وخَصَبَهُمَا له بالحجارة.